

القسم الثاني في الإسلام طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله

تمهيد للأصل الأول للإسلام في الحقيقة دعوتان: دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ. فأما الدعوة الأولى فلم يُعَوَّلَ فيها إلا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه إلى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً واجب الوجود عالماً حكيمًا قادرًا. وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الأكوان. وأطلق للعقل البشري أن يجرى في سبيله الذي سنَّته له الفطرة بدون تقييد فنيبه إلى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيي به الأرض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته - كل من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل منها إلى معرفته.

ثم قد يزيد تنبيهاً بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث في عوالمه فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلق السموات كما جاء في آية: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنبياء آية ٣٠ ونحوها

من الآيات، وهو إطلاق لعنان العقل البشري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان، وقد يزيد التنبيه تأثيراً في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وآله: أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليه السلام: "كان في عماء تحته هواء"^(١) والعماء عندهم السحاب، ففرد القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب، ولا يقف به عند باب، ولا يطالبه فيه بحساب، فليقرأ القارئ القرآن. الآيات الداعية إلى النظر في آيات الكون - ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ سورة الأعراف آية ١٨٥. ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الْمَبْتَأُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ سورة يس آية (٣٣) - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ، خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَنُكْمَ﴾ سورة الروم آية ٢٢. وأمثال ذلك. فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقال هذا.

يذكر القرآن إجمالاً من آثار الله في الأكوان تحريكاً للعبرة، وتذكيراً بالنعمة. وحفزاً للفكرة، لا تقريراً لقواعد الطبيعة. ولا إلزاماً باعتقاد خاص بالخليقة. وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل. انظر كيف يقرع بالدليل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء آية ٢٢) - ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ سورة المؤمنون آية ٩١.

(١) رواه ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل "رضي الله عنه" والحديث من التشابهات لا يعرف تأويله إلا الراسخون.

فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدايته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، (وهو ما تسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية. وقد اتفق المسلمون إلا قليلاً ممن لا يمكن الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالله فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسول ولا من الكتب المنزلة^(١) فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً أو يرسل رسلاً.

وقالوا كذلك: إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسول وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة.

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الإسلام بخارق العادة. وما أدراك ما هو الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي عليه السلام! هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره، ولم ينقطع أثره. هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد في الأخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله. ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده.

(١) النار - أي لا يؤخذ منها بالتسليم بناء على أنها من الله ولا ينافي هذا أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسول وكتبهم بما يقيمون من البرهان على ذلك لا بمجرد التسليم ولا باعتبار أنهم رسل الله ثم بعد الإيمان بالله وبهم يكمل إيمان المؤمن بالأخذ عنهم.

والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يبارس العلوم وقد نزل على وتيرة واحدة، هادياً للضال مقوماً للمعوج كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه حتى لقد دُعِيَ الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فمعجوزاً ولجأوا إلى المجادلة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمتد علمها بأضوائها، وتنشر أنوارها في جوائها.

وهذا الخارق قد دُعِيَ الناس إلى النظر فيه بعقولهم وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم فإن وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المدعى فعليهم أن يأتوا به قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ سورة البقرة آية ٢٣. وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ سورة النساء آية ٨٢. وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل.

معجزة القرآن جامع من القول والعلم، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها وأطلقت له حق النظر في أحنائها، ونشر ما انطوى في أثنائها. وله منها حظه

الذى لا ينتقص، فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها. ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها. أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة من بدن فهي مما ينقطع عنه العقل. ويحمد لديه الفهم، وإنما يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم، ولم تضى عقولهم بنور العلم. وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات^(١).

ثم أن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلاً على الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئاً من سنة الله فى الخليقة ولا حاجة إلى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف.

الأصل الأول للإسلام النظر العقلى لتحصيل الإيمان^(٢)

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى. والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح فقد أقامك معه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟!

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام فى الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية.

(٢) هذا الأصل وما بعده ضد الأصل الرابع من أصول النصرانية.

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج . فأى سعة لا ينظر إليها الحرجُ أكمل من هذه السعة .

الأصل الثانى للإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره: اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممن لا يُنظرُ إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذَ بما دل عليه النقل وبقي فى النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمة وتفويض الأمر إلى الله فى علمه . والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مُهَدَّتْ بين يدى العقل كل سبيل ، وأزِيلَتْ من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد . فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟ أى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء؟ إن لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها .

الأصل الثالث من أصول الأحكام فى الإسلام البعد عن التكفير

هلا ذهبُ من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو: إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُجِلَ على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر، فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من مائة وجه؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار.

الأصل الرابع فى الإسلام الاعتبار بسنن الله فى الخلق^(١)

يتبع ذلك الأصل الأول فى الاعتقاد - وهو أن لا يعول بعد الأنبياء فى الدعوة إلى الحق على غير الدليل وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات - أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها فى معاشها ومعادها. ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم. فما جاء فى الكتاب العزيز مقررًا لهذا الأصل ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ سورة آل عمران آية ١٣٧ .

(١) هذا الأصل ضد الأصل الأول للنصرانية.

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ سورة
 الإسراء آية ٧٧. ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا
 وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ سورة فاطر آية ٤٣. ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ سورة الروم آية ٩. الخ .

فى هذا يصرح الكتاب بأن لله فى الأمم والأكوان سننا لا تتبدل والسنن
 الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار وهى
 التى تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها بالقوانين، ما لنا ولاختلاف
 العبارات والذى ينادى به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث
 فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة فى هذا
 الاجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبنى
 عليها سيرته وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر
 إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه
 فهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن،
 فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر
 منه، فلم لا يعظم تسامحها معه؟

جاء الإسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها
 فى أى لباس وجدت، وفى أى صورة ظهرت، وتحت أى اسم عرفت،
 ولكن كتابه عربى والعربية لغة أولئك الوثنيين. أعدائه الأقربين، وفهم
 معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تُعْرَفْ أوضاعه حتى تُعْرَفْ
 مواضع استعمال كَلِمِهِ وأَسَالِيْبِهِ. ولن يكون ذلك إلا بحفظ ما نطق به
 العرب من منظوم ومنثور وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد

عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم وما فيها من الوثنية وأطوارها، وهكذا صنع المسلمون الأولون ركبوا الأسفار، وأنفقوا الأعمار، وبذلوا الدرهم والدينار فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره توسلاً بذلك إلى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضرباً من ضروب العبادة ويرجون من الله فيه حسن المثوبة فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم للدين الذى ولد فيه، بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه متى حسنت النية فى تناوله، وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته إلا أهل العلم به، أما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانياً كان أو عبرانياً وكتبوا الأنجيل باللغـة اليونانية ولم يكتب فى العبرية إلا إنجيل متى فيما يقال، ألا ترى أن اسم الإنجيل نفسه يونانى؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم وتحرّجاً من النظر فى دواوين آدابهم، وما توارثوا من عاداتهم.

الأصل الخامس للإسلام قلب السلطة الدينية^(١)

أصل من أصول الإسلام أنتقل إليه وما أجله من أصل قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها. هدم الإسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم، لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على

(١) هذا الأصل هو ضد الأصل الثانى من أصول النصرانية.

إيمانه، على أن الرسول ﷺ كان مبلغاً ومذكراً لا مُهيمنًا ومُسيطرًا قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٥١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٥٢﴾﴾ سورة الغاشية آية ٢١-٢٢) ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده، ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحده، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على آخر مهم انحطت منزلته فيه إلا حق النصيحة والإرشاد قال تعالى في وصف الناجين: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ سورة والعصر آية ٣. وقال: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٤. وقال: ﴿فَلَوْلَا نَفْرَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّسَفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ سورة التوبة آية ١٢٢. فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعوهم إلى الخير وهم المراقبون عليها يردونها إلى السبيل السوي إذا انحرقت عنه، وتلك الأمة ليس لها فيهم إلا الدعوة والتذكير، والإنذار والتحذير، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتبع عورة أحد، ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال

العرب خاصة فى زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار، فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يعدد لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد أو فى حكم عمل من الأعمال. فليس فى الإسلام من يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجود.



السلطان فى الإسلام

لكن الإسلام -دينًا وشرعًا- فقد وضع حدودًا ورسم حقوقًا، وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله، فقد يغلب الهوى وتتحكم الشهوة فيغبط الحق. أو يتعدى المتعدى الحد فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق وصون نظام الجماعة، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى على عدد كثير فلا بد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة. الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم. ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة، نعم شرط فيه أن يكون مجتهدًا أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام حتى

يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل والصحيح والفاقد، ويسهل عليه إقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معاً.

هو على هذا، لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية، ولا يرتفع به إلى منزلة. بل هو وسائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وكثرة الإصابة فى الحكم^(١) ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه، وإذا أعوجَّ قُوِّمُوهُ بالنصيحة والإعذار إليه^(٢) (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق)^(٣) فإذا فارق الكتاب والسنة فى عمله، وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره، ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه^(٤) فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه. وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه.

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (تِيوُكَرَاتِيك) أى سلطان إلهى، فإن ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع، وله فى رقاب الناس حق الطاعة لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى

(١) المنار - من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصرُوا عنهم فى الفهم والعلم، ألم يأتك نبأ الإمام مالك مع الخليفة هارون الرشيد "رحمهما الله" وكيف أنزل الإمام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند إلقاء الدرس لأنه فى رتبة المستفيد.

(٢) من شواهد ذلك قول الخليفة الأول رضى الله عنه فى خطبته "وان زغت فقوموتى" راجع ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع.

(٣) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما "راجع ٧٣٢ من مجلد المنار الرابع".

(٤) مثال ذلك ان يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى أن يببدها بها "درء المفاقد مقدم

على جلب المصالح".

الإيمان فليس للمؤمن ما دام مؤمناً أن يخالفه وإن اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ؛ لأن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهر هو دين وشرع ، وهكذا كانت سلطة الكنيسة فى القرون الوسطى ، ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة إلى اليوم كما سبقت الإشارة إليه . كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه . تشرع وتنسخ ما تشاء وتراقب وتحاسب كما تشاء وتحرم وتعطى كما تريد وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم . فى معاشهم لا فى معادهم . وعدوا هذا الفصل منبعاً للخير الأعم عندهم . ثم هم يهيمون فيما يرمون به الإسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد ويظنون أن معنى ذلك فى رأى المسلم أن السلطان هو مقرر الدين وهو واضع أحكامه وهو منفذها . والإيمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلوب بالإخضاع ، وفى العقول بالإقناع ، وما العقل والوجدان عنده إلا متاع . ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبداً لسلطانه بدينه . وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل . فلا يتيسر للدين الإسلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم ما دام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين ، وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبُعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الإسلام . وعلمت أن ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة . والدعوة إلى

الخير، والتنفير عن الشر. وهى سلطة خَوَّلَهَا اللهُ لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خَوَّلَهَا لأعلاهم يتناول بها من أدناهم. ومن هنا تعلم (الجامعة) أن مسألة السلطان فى دين الإسلام ليست مما يضيّق به صدره. وتخرج به نفسه عن احتمال العلم، وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون والأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء. وربما أتينا على شىء آخر منه فيما بعد.

يقولون: إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو المفتى أو شيخ الإسلام. وأقول: إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قرَّرها الشرع الإسلامى، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو يُنازعه فى طريق نظره.

الأصل السادس للإسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة

قالوا: إن الدين الإسلامى دين جهادى شرَّع فيه القتال. ولم يكن شرع فى الدين المسيحى. وفى طبيعة الدين الشدة على من يخالفه وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسألة وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية (مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الأيسر فَأَدِرْ لَهُ خَدِّكَ الأيمن، مَنْ سَخَّرَكَ مَيْلاً فَبَسِّرْ معه مَيْلين) ونحو ذلك، حتى لقد طلبت فيها محبة الأعداء وإن كانت محبة العدو مما لا يدخل

تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق وإنما الاختيارى العدل بين الأعداء والأولياء لكن فى ملكوت الله كل شيء مُستطاع ولا شيء فيه بمستحيل . قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الإسلامى أو هو فى طبيعة كل قادر يُعزَّر إلى حُصْمِهِ؟ ليس القتل فى طبيعة الإسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ سورة الأعراف آية ١٩٩ . ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم . ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفه ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الإسلامية . ما تسمعه فى الحروب المسيحية . عندما اقتدر أصحاب (شريعة المسالمة) على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال .

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة ديناً عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال : إن العناية الإلهية منحت الإسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل . فتيسر له فى شبيبته ما لم يتيسر لغيره إلا فى كهولته أو شيخوخته .



مقابلة بين الإسلام الحربى والمسيحية السلمية

الإسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم

كما شاء ذلك الاعتقاد . وإنما يكلفهم جزية يدفعونها لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم وهم في عقائدهم وعباداتهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يُضايقون في عمل ولا يضامون في معاملة . وكان خلفاء المسلمين يُوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديار لمجرد العبادة كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال . وكل من لم يُعِن على القتال ، جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) و (من آذى ذمياً فليس منا) واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام . عند ما بدأ الضعف في الإسلام - وضيق الصدر من طبع الضعيف فذلك مما لا يُلصق بطبيعته . ولا يخلط بطيبته . المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم . كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاءً حقيقياً ، لا يمنع غير المسيحي من تعدى المسيحي إلا كثرة العدد . أو شدة العُضد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبود . ذلك كله - لأنه ما جاء ليلقى سلاماً بل سيفاً ؛ ولأنه جاء ليفرق بين البنات وأمها والابن وأبيه^(١) والإسلام يقول كتابه في شأن الوالدين : وَإِن

(١) تقدم نص إنجيل متى في هذا . ومثله قول إنجيل لوقا ١٥ - ٢٥ و ٢٦ وقال لهم "يوع" إن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وأمه وامراته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً =

جَهْدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴿١٥﴾ سورة لقمان آية ١٥ . فهو في اشتداده على المهتدين لأمنه لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت . بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا آباءهم المشركين بالعرف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

فأنت ترى الإسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوى قربانهم من المشركين ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته أن يكل أمر الناس في سرائرهم إلى ربهم . وفي طبيعته أن يجير

فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً) وفي الباب ١٩ من هذا الإنجيل ما نصه (٢٧) أما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم تأتوا بهم إلى هنا وانبحوهم قدامى) وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك فى القسوة مع الأهلين المخالفين ومع سائر المحاربين قال فى ١٣ : ٦-٩ من تقنية الاضتراع (وإذا أغواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قاتلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا أبأؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تخفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله الخ) وفى سفر التقنية أيضا (٢٠ : ١٠-١٦) ما نصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسلم لك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكُل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إليك وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إليك نصيباً فلا تستبق منهم نسمة ما) .

من لا يعتقد عقيدته، ويحمي من لا يتبع سنته، وإن كان في عمى من الجهالة وخبَل من الضلالة، أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء، ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة، أو كشف غامض أو تبيين طريقة؟ كلا ثم كلا، فمن بحث ونقب، وسبر ونقر، أو شق الأرض، أو ارتقى إلى السماء فهو في أمن من أن يعرض الإسلام له في شيء من عمله إلا أن يُحدث شغباً، أو يُفسد أدباً، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد، وإصلاح الفاسد، بسماع من الدين.

الأصل السابع للإسلام مودة المخالفين في العقيدة^(١)

المصاهرة:

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيسها أو بيعتها، وهي منه بمنزلة البعض من الكل. وألزم له من الظل، وصاحبته في العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه. تتصرف فيهم كما تتصرف فيه، لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِيَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ

(١) هذا الأصل الإسلامي هو ضد الأصل السادس للنصرانية.

مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ سورة الروم آية ٢١، فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة. وهي كما هي، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له، وأين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهدت في طبيعة البشر، وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم، وذوى القربى لوالداتهم، أيغيب عنك ما يستحکم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يُعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه^(١).

ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يُعوّد القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربّه، والعقيدة طور من أطوار القلوب، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذي يحاسب عليها، أما المخلوق فلا تطول يده إليها، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل، ويعلم الجاهل، وينصح للغاوي، ويرشد الضال، لا يكفر في ذلك نعمة العشير، ولا يسلك مسالك التعسير، ولا يقطع أمل النصير ولا يخالف سنة الوفاء، ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء، ماذا ترى في الزوجة الكتابية لو كانت من أهل

(١) المنار - يقول بعض النصارى: إذا كان الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف، مع التباين في العقيدة والتخالف، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض؟! والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم أقوى متين فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوى يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وببغض أولاده ووالديه إذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة، أباح الإسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم.

النظر العقلي وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها؟ أفينقص ذلك من مودته لها. أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها، فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته، ودينه وبلته، ويألف مخالطته وعشرته. وولايته ونصرته، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يُعجل نظره في نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل في علم أو قاعدة لصناعة وإن كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد، أو يميل إلى رأى غير الذى يجد، أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف. وهو معه على ما رأيت من الائتلاف؟ لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الإسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم: لأطلت على القارئ أكثر مما أطلت ولهذا أرى من الواجب على أن أختتم القول بذكر أصل أشرت إليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره.

الأصل الثامن للإسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة^(١)

الصحة:

الحياة فى الإسلام مقدمة على الدين، وأوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه، وتملاً قلبه من ربه، وتفعم أمه من رغبته. فبى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تُجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة.

(١) هذا الأصل ضد الأصل ٣ للنصرانية "راجع ص ٢٦".

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل "بع ما تملك واتبعني" ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله: (الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس)^(١).

الرُّخص:

فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه، الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء. القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ويصلى قاعداً. السعى إلى الجمعة واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط. وهكذا تجد القاعدة قد عمّت: (صحة الأبدان مقدّمة على صحة الأديان) فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح.

الزينة والطيبات:

أباح الإسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية، والمحافظة على صفات الرجولية، جاء في الكتاب العزيز:

(١) النار - يشير الكاتب إلى حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه وقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة. كان سعد مريضاً في حجة الوداع فعاده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثي ماله وفي رواية بعاله كله فسأل النبي عما ترك لولده فقال هم أغنياء. وفي رواية الجماعة أنه لم يكن له إلا بنت، وفي رواية أحمد والنسائي أنه أمره أولاً بأن يتصدق بالعشر والحاصل أنه مازال يراجعه حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرّم الزيادة بالحديث.

﴿يَبْنِيءَ آدَمَ حُدُودَ زِينَتِكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلذَّيْنِ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

سورة الأعراف الآيات ٣١-٣٢-٣٣.

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره. كما قال: ﴿وَالأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَعُونَ وَحِينَ يُنْحَرُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أُنْفُسُكُمُ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِبَلِغِهِ إِلَّا يَشِقُ الْأَنفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ سورة النحل الآيات ٥-٦-٧-٨. ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ سورة النحل آية ١٤.

الاقتصاد:

ووضع قانوناً للإنفاق وحفظ المال في قوله: ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ سورة الإسراء آية ٢٧. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ سورة الإسراء آية ٢٩.

النهى عن الغلو فى الدين:

وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا إذ قال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ سورة القصص آية ٧٧.

فترى أن الإسلام لم يببخس الحواس حقها كما أنه هيا الروح لبلوغ كمالها، فهو الذى جمع للإنسان أجزاء حقيقته واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا، ولا ملكوتيا بحتا. جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة، استبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى، كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحانى. أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ سورة البقرة آية ٢٩. قد أطلق القيد عن قواد. لتصل من رقة الحياة (مع القصد) إلى منتهاه، والنفوس مطبوعة على التنافس. قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرا. أو تجده لذيذا أو تظنه نافعا.

وليس فى الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها. بل خصها الله بالكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف.

نتيجة

فإذا جمع سائق الأنفس ومُرْجِبِهَا ومرشدُها وهاديها بين شاحذين: شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى

الآخرة، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون . وفى الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها ، بشهامه فؤادها ، بضاء الرُميع^(١) لا تخشى العثرة بالوعيد . ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعيد^(٢) فتطلب منافعها ، من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد فيها ، فتسير فى مناكب الأرض . ولا تكتفى عن الكل بالبعض . وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها . ولا يحجبها ظهرها عن مديديها إلى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدّها عن النظر فى الهواء ، والبحث فى الماء ، والاهتداء بنجوم السماء بعد معرفة مواقعها وحركتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها ، وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعدّ لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم . ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة . وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة لا يجد من نواهى الدين ما يصدّه عن مطلب . ولا ما يكف يده عن تناول رغبته . أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص إلا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التى لا تُخرق تحول بينه وبين ملكوت السموات .

كيف يتسنّى للمسلم أن يشكر الله حق شكره . إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهرة إلى سرّه ويتف على قوانينه وشرائعه ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منفعه ، كيف يشكر الله إذا توائى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما

(١) هو الحازم القوى العزيمة يزعم على الأمر فيمضى فيه ولا يبتنى والجيد الرأى

المقدام ..

(٢) الرعيد الجبان الكثير الارتعاد .

خلق لأجله، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله. انظر إلى لطف الإشارة في الآية المتقدمة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ سورة الأعراف آية ٣٢. الخ، حيث قال: ﴿كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف آية ٣٢، فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفقه به معيشتهم، ويُجَمَلُ به هيأتهم ويجلَى به زينتهم.

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك بما دون الغاية ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم. فهم محفوزون أشدَّ الحفوز إلى طلب العلم وتلمسه في كل مكان، وتلقيه من أية شفة وأى لسان، فإذا لاقاهم العالم في أى سبيل أو عثروا به في أى جيل، أو ظهر لهم من أى قبيل. هشوا له وبشوا ونصبوا إليه وكمشوا^(١). وشدوا به أوأصرهم. وعقدوا عليه خناصرهم، ولا يبالون ما تكون عقيدته، إذا نفعتهم حكمته، "الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها"^(٢) ألم يأتهم عن ربهم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة البقرة آية ٢٦٩، ألم يسعوا في وصفهم قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ سورة الزمر آية ١٨، ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلماً حقاً. وذلك ما تنجرُّ

(١) المنار - لعل نصبوا من نصب السير وهو أن يسير طول يومه سيراً ليلاً. وكمش الرجل كان سريعاً ماضياً. وكمش كماشة شجع وأسرع..

(٢) حديث رواه الترمذى عن أبى هريرة، ورواه غيره بألفاظ أخرى والمعنى واحد، ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضى الله عنهما "خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت" وفى رواية عن على كرم الله وجهه "الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق".

إليه طبيعة دينه . وحديث ”اطلبوا العلم ولو بالصين“^(١) إن كان في سند لفظه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مقال فسنده معناه متواتر فإنه سند القرآن نفسه فإن الله يفضل العلم بدون قيد ولا تخصيص . فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه وإن كان في أول أمره مطلوباً لغيره مثل العلم. تطلب العلم أولاً لحاجتك إليه في تقويم معيشة أو ترفيه حال . أو دفاع عن نفس وماله ، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه فتصيب اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها.

وتضمحل فيها كل غاية سواها وعلّة ذلك ظاهرة فإن العلم مسرح نظر النقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية بل هي أفضلها على الحقيقة قد وضع لها العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة سواها نعيماً ولذة . ولست في حاجة إلى تعدد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الإنسان.

وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الإنسان ألدّ من كشف المجهول . وإحراز المعقول . وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه

(١) رواه ابن عدى في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضها..

ومتدمات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليتمتع عقله . كما يسيح في
بسيط الأرض ليكسب رزقه ويُقيت أهله على أن العلم كان من ضروريات
معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة .
ويستجلى سناؤه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه . وشاغله
عن حاجات حسه ، حتى يدخل معه في رُمسِهِ . كما وقع لكثير من
المسلمين . قال إمام جليل من أئمتهم " طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون
إلا لله " .



نتائج هذه الأصول وآثارها في المسلمين

إلام أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولى؟

.. فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الإسكندرية بعد لحاق النبي - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - بالرفيق الأعلى بست سنوات فى رواية، وتسع سنوات فى رواية أخرى، والإسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره. فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى كان فى بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل إلى العلم بطبيعته، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكرتهم. ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن أربعين سنة، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم. وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته.

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناذ منه وأكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين: "إن المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى بمجرد ما أعتق من الوثنية

الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع".
خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سوريا ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع.



اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية

وبعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة على ابن أبي طالب كرم الله وجهه يحضُّ على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك. وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالاً مع ما يدعوهم إليه دينهم وتنبيه لطلبه شريعتهم. وإن كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع في أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة، فالبراعة في الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر قد بلغت في خلافة بنى أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها.

وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتهما ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير. ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول. نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين. فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلما سئل عنه دُلَّ عليه فذهب إليه، فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء. وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله، فإذا هو في قصر مشيد محلى البنين بأجمل ما يكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه، وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ولا يخفى ما فى ذلك من ترويح فنون الإبداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها.

اشتغالهم بالعلوم الكونية فى أوائل القرن الثانى

انقضت دولة بنى أمية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبنى العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت النبى قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة سنة ١٣٢. ثم نقل المنصور عاصمة الملك إلى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً، وأخذ المنصور ينشئ المدارس للطب والشريعة وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه وأمر بأن

يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها. وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها، ونالت به أكبر ثروتها. ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة. فوجد مما فيها من النفاثس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى. ولا يسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم.



إنشأؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دول الإسلام تعتنى بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها حتى كان فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد منها ستة آلاف فى الطب والفلك لا غير. وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة. وكان فيها كرتان سماويتان إحداهما من الفضة يقال: إن صانعها بطليموس نفسه وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار. والثانية من البرونز. ومكتبة الخلفاء فى أسبانيا بلغ ما فيها ست مائة ألف مجلد. وكان فهرستها أربعة وأربعين مجلداً. وقد حققوا أنه كان فى أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية. وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة. وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه. يقال إن سلطان بخارى دعا طبيباً أندلسياً ليزوره فأجابه

أن ذلك لا يمكنه ؛ لأن كتبه تحتاج إلى أربعمئة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلها. وكان حنين بن إسحق النسطوري فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يَفِدُّ إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه.



إنشأؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس

غُطى بسيط الملكة الإسلامية على سعتها بالمدارس. نقول (على سعتها) لأنها زادت فى السعة على الملكة الرومانية بكثير. فكنت تجد المدارس فى كل الأقطار: فى المغول، فى التتار من جهة المشرق، فى مراكش. فى فارس. فى أسبانيا من جهة المغرب.

كانت طريقة الأساتذة فى التدريس أن كل مدرس يُعَدُّ درسه ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه ما يريد أن يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه، ثم تكون هذه الدروس كتبًا وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم. وهنا نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير أن مؤرخًا واحدًا رأيت أنه ذكر أنه قد وُضِعَ قانونٌ فى بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء إلا بإذن. على أنى لا أعلم شيئًا من ذلك وقع فى الممالك الإسلامية أيام كان الإسلام إسلامًا.

نرجع إلى الكلام في المدارس الإسلامية. يقول جبون في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب: (إن ولاية الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء. في إعلاء مقام العلم والعلماء. وبسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه، وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة. أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد. وجعل لها من الربيع يصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة. وكان الذين يُغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناعات فيها. غير أن الفقير ينفق عليه من الربيع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفى ببال أبيه. والمعلمون كانوا يُنتدبون رواتب وافرة). ١ هـ

انقسمت الممالك الإسلامية في زمن من الأزمان إلى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع. كان العباسيون في آسيا (الشرق) والأمويون في الأندلس من أوروبا (الغرب) والفاطيون في مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس في العلم والأدب. وكان مرصد سمرقند قائماً في ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياسة الأفلاك، ومرصد جيرالد في الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الإدراك. جميع المدارس في البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة وكان من أشد النظمات وأدقها. ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة

بأنه فاز في الامتحان على شدته. وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوروبا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في ساليرن من بلاد إيطاليا، وأول مرصد فلكي أقيم في أوروبا هو الذي أقامه العرب في أشبيلية من بلاد أسبانيا.

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الأدبية بجميع أنواعها، حتى القصص والأساطير الخيالية. في الأحوال الاجتماعية، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة، وكان مترجموهم في أول الأمر مسيحيين وصابئين وغيرهم، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين. وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها، وينقلوها إلى لسانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها. وكان المعلمون لأبناء العظماء في أول الأمر من المسيحيين واليهود ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين. كل يعلم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه.



علوم العرب واكتشافاتهم

كان علم العرب في أول الأمر يونانياً لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربياً. ولم يرض العربي أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو إقليدس أو بطليموس زمناً طويلاً كما بقي الأوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي.

قالوا: إن باكون هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية وأقامها مقام الرواية عن الأساتذة والتمسك بآراء المصنفين وأطلق العلم من رق التقليد. ذلك حق في أوروبا. أما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة. أول شيء تميز به فلاسفة العرب عن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين: أن القاعدة عند العرب هي (جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً) وعند الأوربي إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الأساتذة تكن عالماً). (فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلب الحال، وماذا أعقب من سوء المآل)

قال ديلامبر في تاريخ علم الهيئة: (إذا عدت في اليونان اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد من العرب عددًا كبيرًا غير محصور). أما في الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربًا واحدًا عند اليونانيين ولكنك تعد من المجريين اثنين عند العرب، ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم. وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية، وهي من أصدق الأدلة في الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف.

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض. وقد اكتشفوا قوانين لثقل الجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول في غاية

الدقة والصحة كما وضعوا جداول للأرصاء الفلكية وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية.

لا يمكننى فى مقالى هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج إلى سِفْر كبير. وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والإنصاف من فلاسفة الأوربيين ومؤرخيهم. وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لإخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم^(١) ولكنى أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين^(٢): (تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا فى زماننا كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها فإن هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا. فكان عندهم عاباً يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن. والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها.

قال الخازنى: إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء أن الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظن من هذا أنه مرّ فى صور معادن أخرى فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً. ولا يعلم أن الفلاسفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الإنسان أنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدرج ومن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب فى صور الأنواع.

(١) النار: قد نشرنا جملة صالحة من ذلك فى مقالات (مدنية العرب) فى المجلد الثالث.

(٢) هو الفيلسوف درابر الأمريكانى.

المختلفة كأنَّ كان شورًا ثم حمارًا ثم فرسًا ثم قردًا ثم صار بعد ذلك إنسانًا). احد، ويقول الفيلسوف كوستاف لوبون: (إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين).

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حرية الرأي إلى نقض أصل الدين وقال: إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذى يبقى هي أرواح الأنواع. فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص فإنه قال كما قال أرسطو وغيره: إن الأشخاص توجد وتفنى، وأما الأنواع فهي باقية لا تزول. وهذا باب آخر يغير بالمرّة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر)^(١) كما أخطأوا في قولهم عنه أنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صورة الكل يرجع إليه بمعنى: أنه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باقٍ آخر وهو يقرب من قولهم السابق. فإن ابن رشد كان مسلمًا وكان يعرف أن الإسلام لا ينافي العلم وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم الذى لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة في طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال. وكثير ممن سكرُوا بهذا الرأى أفاقوا منه. ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى إليه كما سبق بيانه^(٢) ولكنى لا أنكر نسبته لو نسب إلى ابن سبئين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فإن في كلامه ما يدل على ذلك.

ويقول فيلسوف آخر: (إن العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ممتدة بين دقات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أو مخزونة في بعض الرؤوس. كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن

(١) (٢) قد سبق ذلك في المقالة الأولى التى رد بها الكاتب على الجامعة ..

لا حظاً للإنسانية منها سوى النظر إليها - صار عند العرب حياة الآداب، وغذاء الأرواح، وروح الثروة، وقوام الصنعة. ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذي أُعدت له. وليس في الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل - في إخراج أوروبا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم وفي تعليمها. كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبني عليهما العلم - إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها إليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم. وكان من حظ العلم العربي والأدب المحمدي عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائباً لأن كرسيه كان انتقل إلى فرنسا في أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم إلى شمال إيطاليا واستقر به القرار هناك. إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا في القرن الثاني عشر وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن أسبانيا). اهـ

ويقول آخر: (لا أدري كيف أعطانا الإسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفرادهم وإن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثني عشر قرناً في أوروبا ولم تمنحنا فلكياً واحداً).

هذا النماء والذكاء العلمي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء، وإنما كان التفاضل بالجد والعمل، والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمّالهم. وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته. قال بعض فلاسفة الغربيين قولاً يعرفه الحق وتثبته المشاهدة: (إن شعوب الأرض لم تر قط فاتحاً بلغ من الحلم

هذا المبلغ (يريد فاتحي الإسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه
ولطفه هذا الحد).



أخذ الخلفاء والأمراء بيد العلم والعلماء

إن الخلفاء الذين يقال عنهم: إنهم رؤساء دين وحكام سياسة معاً كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعيين إلى تعلمها. كانوا العالمين العاملين. كان خليفة كالمؤمن يضطهد أحياناً أعداء الفلسفة، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضا في سجنه الشهور أو السنين؛ لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظناً منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده. هل رأيت في غير الإسلام رئيساً يضطهد أعداء العلم وجفافة الفلسفة؟ لعلك لا تجده أبداً.

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كان حالهم. وسأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعرى لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة: يذكر علي بن يوسف القفطي أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج إلى المعرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع في حصارها وربما بالمنجنيق فلما أحس أهلها بالغلْب سعوا إلى أبي العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشق فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال: ألك حاجة؟ قال: الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده، وكان النهار البالغ قاط وسطه وطاب برده ﴿حُذِرَ الْعَفْوُ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الجنهات ﴿ سورة الأعراف آية ١٩٩ ، فقال له صالح : قد وهبتها لك . ثم قال له : أنشدنا شيئاً من شعرك لنرويه فأنشده على البديهة أبياتاً فيه فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف ، ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لكشف .



إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس بعضهم في آذان بعض وتغامزهم على أهل الفضل . ولزهم إياهم بالألقاب بل واحتقارهم في بعض الأحيان وهذا النوع منه عند المسلمين بلا تكبير ، وهو خطأ ظاهر ؛ لأن هذا النوع مما يكره أهل العلم لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فإن القائمين على عقيدة الكاثوليك إلى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعادة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يخلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه . ويرون أن النظر في كتبهم لا يجوز في شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب في أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء ، وإنما هي نفرة الإنسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضى في سبيله إلى حيث يشاء .

يقول آخرون: إن التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه في فكره فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة. وأقول: إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها وأضر بأمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله^(١) فتضطر السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقاً له، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعى الحرية في غلوائه لهذا يرى حُفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن يُنقى منهم المجتمع صوتاً له عما يززع أركانه. ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد. ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة وأن لا ينشأ شيء منها إلا بإذن من الحكومة. ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقل مدارسه بقوة السلاح. وقد ينفي من البلاد كما نفى كثيرون في سنين سابقة؛ ولكن هل يسمّى هذا اضطهاداً؟ كلا ولكن الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها في أول نشأتهم.

ماذا يقول القائلون؟ إن التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره، يكاد يكون خفياً والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس! ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي

(١) المنار: ذكر إمام الحرمين في كتابه (النشائل) في أصول الدين أنه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن ذلك هو السبب في قتل الحلاج.

الفيلسوف ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب. وإذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الإقناع والإلزام وسقطت قيمة الغلو فى التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذه. كان عمرو بين عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الإمام البخارى صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تعلقو كل ذى منزلة عنده حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه : (رَمَيْتُ لِكُلِّ النَّاسِ حَبًّا فَلَقَطُوا إِلَّا أَنْتَ يَا عَمْرُو بْنَ عَبِيدٍ) فانظر كيف كان لإمام من أئمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأساً.

إذا عدَّ عادُّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو فى الدين فما عليه إلا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذى أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين، وأن ليست الغيرة عليه هى الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم. وإنما تجد الحسد هو العامل الأول ذلك كله والدين آلة له.

ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضى قضاة (كابن رشد ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذى نفوذ عظيم بين العامة. وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضاً كما يشهد به العيان ويحكى لنا التاريخ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة. لأن التحاسد أكثر ما يقع بين

من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه. وإنما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الإسلام. اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا.

هذه طبيعة الدين الإسلامى عرضت عليك فى أهم عناصرها ومقومات مزاجها. وهذا كان أثرها فى العالم الشرقى والغربى. وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله. هل فى هذا خفاء على ناظر. وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر، أفلا يبسم الإسلام عجباً وهو فى أشد الكرب لعقوق أبنائه، من أديب لم يكن يعده من أعدائه إن لم يحسبه فى أحبائه. عندما يراه يسدّ سهمه إليه، ويجور كما يجور الجائرون فى حكمه عليه؟

